شاعر الحسن

كلف الرافعي بالشعر من أول نشأته ، فما كان له هوى إلا أن يكون شاعراً كبعض من يعرف من شعراء العربية ، أو خيراً ممن يعرف من شعراء العربية ... وكان واسع الأمل ، كثير الثقة ، عظيم الطموح ، كثير الاعتداد بالنفس ؛ فمن ثم نشأ جباراً عريض الدعوى طويل اللسان من أول يوم ... وبهذه الكبرياء الأدبية الطاغية ، وبما فيه من الاستعداد الأدبي الكبير ، وبما في أعصابه من دقة الحس وسرعة الاستجابة لما تنفعل به — بكل أولئك تهيأ لأن يكون كما أراد ، وأن يبلغ بنفسه هذا المكان بين أدباء العربية

وإذا كان الرافعي قد بدأ شاعراً كما أراد ، فما كانت له خيرة في المذهب الذي آل إليه من بعد ، ولكنها نوازع الوراثة ، وعوامل البيئة ، ودوافع الحياة التي كانت تضطرب به وتذهب به مذاهبها

لم يكن الرافعي يقدر في أيام نشأته الأولى أنه سينتهي من الأدب إلى هذه الغاية ، وأن الحياة سترده من الهدف الذي يسعى إليه في إمارة الشعر إلى هذا الهدف الذي انتهى إليه في ديوان الأدب والإنشاء . وما كان أحد من خاصته وأصدقائه ليعرف أن الرافعي الشاعر الشاب الذي توزعته الصبابة ، وفتنته الحياة ، وتقاسمته لذات الصبا ، وتعناه الهوى ، وتصباه الحب والشعر والشباب — سيكون مكانه في غده هذا المكان في الدفاع عن الدين والذود عن العربية والصيال في سبيل الله . وما كان هو يأمل في مستقبله إلا أن يكون شاعراً تصير إليه في إمارة الشعر منزلة تخمل ذكر فلان وفلان من شعراء عصره .

ومضى الرافعي يسعى إلى غايته في الشعر ، وقد تزود زاده من الأدب القديم ،

ووعى ما وعى من تراث شعراء العربية . وكان أمامه مثلان من شعراء عصره يمتد إليهما طرفه ويتعلق بهما أمله : هما البارودى وحافظ ؛ أما أولهما فكانت له زعامة الشعر ، على مفرقه تاجه وفى يده صولجانه ، قد قوى واستحصد واستوى على عرشه بعد جهاد السنين ومكابدة الأيام ؛ وأما الثانى فكان فى الشباب والحداثة ، وكان جديداً فى السوق ، قد فتنته الشهرة وفتنت به من حوله ؛ فأخذ الرافعى ينظر إليه وإلى نفسه ، ويوازن بين حال وحال ، ويقايس بين شعر وشعر ؛ فقر فى نفسه أنه هو وهو ... وأنهما فى منزلة سواء ، وأنه مستطيع أن يبلغ مبلغه ويصير إلى مكانه إذا أراد ؛ فسار على سنته وجرى فى ميدانه ، لا يكاد حافظ يقول : أنا ... حتى يقول الرافعى : أنا وأنت ... وما فاته أن حافظاً يغالبه بالشهرة السابقة ، ويطاوله بالجاه والأنصار ، ويفاخره بمكانه من الأستاذ الإمام ، وبمنزلته عند البارودى زعيم الشعراء ، وبحظوته عند الشعب ؛ فراح الرافعى يستكمل أسباب الكفاح ويستتم النقص ؛ فأكد صلته بالبارودى ، وعقد آصرة بينه وبين الأستاذ الامام ، ومضى يتحدث فى المجالس ، وينشر فى الصحف ، ويذيع اسمه بين الناس . وانتهز نهزة فذهب يستطيل بأنه (شاعر الحسن) وبأن حافظاً لا يقول فى الغزل والنسيب ...!

كانت المنافسة بينه وبين حافظ منافسة مؤدبة كريمة ، لم تعكر ما بينهما من صفو المودات ، ولم تجن على صداقتهما القوية ، فظل الرافعى وحافظ صديقين حميمين ، منذ تعارفا فى سنة ١٩٠٠ إلى أن قضى حافظ رحمه الله فى سنة ١٩٣٢

ليس من همى أن أتحدث عن شعر الشاعرين ، أو أقايس بين فن وفن وشاعرية وشاعرية ، فقد يبدو لى هنا بعد ما بين المنزلتين فى الموازنة بين الرافعى وحافظ فى الشعر ؛ وما يهمنى فى هذا الحديث إلا إثبات الصلة بين الرجلين ، فمن أراد شيئاً وراء هذا فسيجد فيما أثبته هنا مقدمات البحث وهيكل البناء .

* * *

فى إبان هذه المعركة الصامتة بين الرافعى وحافظ ، قدم إلى مصر شاعر كبير

لم يكن الرافعي يعرفه او يسمع به أو قرأ شيئاً من شعره ، ذلك هو شاعر العراق الكبير المرحوم عبد المحسن الكاظمي ، ونشرت له الصحف غداة مقدمه قصيدة عينية من بحر الطويل ، قرأها الرافعي فاستجادها ورأى فيها فناً ليس من فن الشعراء المعاصرين الذين قرأ لهم ، فملكت نفسه وبلغت منه مبلغاً ، وقرر لساعته أن يسعى إلى التعرف به ، ليصل به حبله ويقتبس من أدبه ، وكان الرافعي يومئذ كاتباً بمحكمة طلخا ، ففارق عمله بغير إجازة ، وسعى إلى لقاء الكاظمي في القاهرة وهو يمني نفسه بأن يكون بينهما من الود ما يرفع من شأن الرافعي ويجدي على أدبه ، وكان في الكاظمي — رحمه الله — أنفة وكبرياء . فأبى على الرافعي أن يلقاه ورده رداً غير جميل ، إذ كان الرافعي يومئذ نكرة في الأدباء ، وكان الكاظمي ما كان في علمه وأدبه وشهرته وكبريائه ، مع خلته وفقره ؛ واصطدمت كبرياء بكبرياء ، وثار دم الرافعي وغلى غليانه ، فذهب من فوره فأنشأ مقالة (أو قصيدة ، لا أذكر) نال فيها من الكاظمي ما استطاع أن ينال بذمه والزراية عليه والغض من مكانته ؛ وما كان الرافعي مؤمناً بما كتب ، ولكنه قصد أن يلفت الشاعر إليه بالإنذار والتخويف ، بعد ما عجز أن يبلغ إليه بالزلفى والكرامة .

وفعلت هذه الكلمة فعلها في التقريب بين الأديبين ، فاتصل الرافعي بالكاظمي وصفا ما بينهما وأخلصا في الوداد والحب حتى لم يكن بينهما حجاب ، وحتى صار الرافعي أصفى أصفياء الكاظمي ، وصار الكاظمي أشعر الشعراء المعاصرين عنده الرافعي ، ثم ارتفعت الصلة بينهما عما يكون بين التلميذ والأستاذ ، وتصادقا صداقة النظراء ، حتى إنه لما هم الكاظمي أن يسافر إلى الأندلس في سنة ١٩٠٥ كتب كتاباً إلى الرافعي يقول فيه : « ... ثق أني أسافر مطمئنا وأنت بقيتي في مصر »

هؤلاء الثلاثة : البارودي ، وحافظ ، والكاظمي ، هم كل من أعرف ممن تأثر بهم الرافعي من شعراء عصره ؛ أما شوقي ، وصبري ، ومطران ، وغيرهم ممن نشأوا مع الرافعي في جيل واحد، فلا أعرف بينه وبين أحد منهم صلة تمتد إلى أيامه الأولى وما سمعت منه — رحمه الله — حديثاً يشعر بصلة خاصة كانت تربطه بواحد منهم

فى حداثته ، فلعل عند غيرى من أهل الأدب علماً من العلم يكمل هذا النقص ويسد هذه الخلة .

* * *

بدأ الرافعى يقول الشعر ولما يبلغ العشرين من عمره ، ينشره فى الصحف وفى مجلات السوريين التى تصدر فى مصر ، وكانت المجلات الأدبية كلها إلى ذلك الوقت فى أيديهم ، فمجلة الضياء ، والبيان ، والثريا ، والزهراء ، والمقتطف ، وسركيس ، والهلال ، وغيرها — كان يقوم عليها كلها جماعة من أدباء سورية : كالبستانى ، واليازجى ، وصروف ، وجورج زيدان ، وسليم سركيس وغيرهم ؛ وكانت إليهم الزعامة الأدبية فى اللغة والأدب الوصفى والتاريخ ، أما أدب الإنشاء فكان قسمة بينهم وبين أدباء مصر .

والآن أدع لصديق الأديب الأستاذ جورج إبراهيم حنا ، أن يتحدث عن الرافعى فى أول عهده بالشعر ؛ قال :

« بدأت صلتى بالمرحوم الرافعى قريباً من سنة ١٩٠٠ ؛ كنت يومئذ أقول الشعر ، وكان اسمى معروفاً لقراء مجلة الثريا ، ولم أكن أعرف الرافعى أو أسمع به ، وكان لأخيه الوجيه سعيد الرافعى متجر فى شارع الخان بطنطا ، يستورد إليه النُقْل والفواكه الجافة من الشام ، وكنت زبونه ، فذهبت إليه يوماً أشترى شيئاً من فاكهة الشام ، إذ كان له بها شهرة ؛ فلما صرت إليه ، لقيت هناك فتى نحيلاً فى العشرين من عمره ، يلبس جلباباً ، جالساً إلى مكتب فى المتجر قريب من الباب ، فما رآنى الفتى حتى نادانى فدعانى إلى الجلوس ، ثم قال لى : أتعرف أنى شاعر ؟ قلت : لا ؛ لست أعرف . قال : أنا مصطفى صادق الرافعى ، وهذه الكراسات كلها من شعرى . وعرض على بضعة دفاتر كانت على المكتب ، ثم استأنف قائلاً : ولكنه شعر الحداثة فهو لا يعجبنى ؛ سأختار أجوده وأمزق الباقى ، وسأطبع ديوانى بعد قليل فتعرفنى ... ! »

قال : « وعرفت الرافعى من يومئذ ، وقويت بيننا الصلة حتى صرت أدنى

أصدقائه إليه : يقرأ على شعره ، ويستمع إلى رأيي فيه ، ويستشيرني في أمره . وقد كان أوله كآخره ، فما لبثت حتى أعجبت به وأحللته من نفسي أرفع محل من الحب والتقدير » .

* * *

ظل الرافعي يقول الشعر لنفسه ، أو ينشر منه في المجلات الأدبية ، أو يقرؤه على أصدقائه . وأصدقاؤه يومئذ صفوة من شباب السوريين في طنطا : منهم الأديب جورج ابراهيم ، والصيدليان نسيم يارد وإلياس عجان ، والطبيب تودري ، وكانوا يتخذون مجلسهم عادة في وقت الفراغ ، في صيدلية (كوكب الشرق) بطنطا .

فلما كانت سنة ١٩٠٣ ، وعمر الرافعي يومئذ ثلاث وعشرون سنة ، نشر حافظ إبراهيم ديوانه ، وقدم له بمقدمة بليغة كانت حديث الأدباء في حينها ، وطال حولها الجدل حتى نسبها بعضهم إلى المويلحي . واستقبل الأدباء ديوان حافظ ومقدمة ديوانه استقبالاً رائعاً ، وعقدوا له أكاليل الثناء . والرافعي غيور شموس ، فما هو إلا أن رأى ما رأى ، حتى عقد العزم على إصدار ديوانه ، وما دام حافظ قد صدر ديوانه بهذه المقدمة التي أحدثت كل هذا الدوي ، فان على الرافعي أن يحاول جهده ليبلغ بديوانه ما بلغ حافظ ، وإن عليه أن يحمل الأدباء على أن ينسوا بمقدمته مقدمة ديوان حافظ

وصدر الجزء الأول من ديوان الرافعي في الموعد الذي أراد ، بعيد ديوان حافظ بقليل ، وقدم له بمقدمة بارعة فصل فيها معنى الشعر وفنونه ومذاهبه وأوليته ، وهي ، وإن كانت أول ما نعرف مما كتب الرافعي ، تدل بمعناها ومبناها على أن ذلك الشاب النحيل الضاوي الجسد ، كان يعرف أين موضعه بين أدباء العربية في غد . وإذا كانت مقدمة ديوان حافظ قد ثار حولها من الجدل ما حمل بعض الأدباء على نسبتها إلى المويلحي ، فقد حملت هذه المقدمة الأديب الناقد الكبير الشيخ إبراهيم اليازجي على الشك في أن يكون كاتبها من ذلك العصر ، مما يخادع نفسه في قدرة الرافعي على كتابتها .

قال الأستاذ جورج ابراهيم :

« لما هم الرافعى أن يكتب مقدمة ديوانه ، جاء إلى فى جلبابه والحر شديد ، فحدثنى من حديثه ، ثم سألنى أن أهيئ له مكاناً رطباً يجلس فيه ليكتب المقدمة ، فجلس فى غرفة من الدار ، ثم تخفف من لباسه . . . واقتعد البلاط بلا فرش ، وبسط أوراقه على الأرض وتهيأ للكتابة ؛ فحذرته أن تنال منه رطوبة البلاط فى مجلسه الطويل . فقال : لا عليك يا جورج ؛ إنى لأحب أن أحس الرطوبة من تحتى ... فينشط رأسى ... ثم استمر فى مجلسه يكتب وليس معه ولا حواليه من وسائل العلم إلا قلمه وأوراقه ، حتى فرغ من المقدمة فى ساعات ...

قال : « فلما تم طبع الديوان أهدى نسخة منه فيما أهدى إلى العلامة الشيخ إبراهيم اليازجى ، والشيخ اليازجى يومئذ أديب العصر وأبلغ منشئ فى العالم العربى . وكان الرافعى حريصاً على أن يسمع رأى الأستاذ اليازجى فى شعره وأدبه ، ومضى زمان ولم يكتب اليازجى ، على حين تناولت كل الصحف والمجلات ديوان الرافعى ومقدمته بالنقد أو التقريظ ، واحتفل به المؤيد احتفالاً كبيراً فنشر مقدمته فى صدره ، والمؤيد يومئذ جريدة العالم العربى كله .

قال : « واستعجبت أن يهمل أستاذنا اليازجى هذا الديوان فلا يكتب عنه ، واغتم الرافعى لذلك غماً شديداً ؛ إذ كان كل ما يكتب الأدباء فى النقد لا يغنى عن كلمة يقولها اليازجى ؛ فذهبت أسأله ، فقال لى : أنت على ثقة أن هذه المقدمة من إنشاء الرافعى ؟ قلت : هو كتبها بعينى فما أشك فى ذلك . قال اليازجى : وأنا ما أبطأت فى الكتابة عن الديوان إلا من الشك فى قدرة هذا الشيخ على إنشاء مثل هذه المقدمة ؛ فأنا منذ أسبوعين أبحث عنها فى مظانها من كتب العربية ... قلت : ياسيدى ، إنه ليس بشيخ ، إنه فتى لم يبلغ الثالثة والعشرين ... »

وكتب اليازجى بعد ذلك فى عدد يونيو سنة ١٩٠٣ من مجلة الضياء فى تقريظ الجزء الأول من ديوان الرافعى ما يأتى :

« . . . وقد صدره الناظم بمقدمة طويلة فى تعريف الشعر ، ذهب فيها مذهباً

عزيزاً فى البلاغة ، وتبسط ما شاء فى وصف الشعر وتقسيمه وبيان مزيته ، فى كلام تضمن من فنون المجاز وضروب الخيال ما إذا تدبرته وجدته هو الشعر بعينه . . . »

ثم انتقد اليازجى بعض ألفاظ فى الديوان ، وعقب عليها بقوله :

« ... على أن هذا لا ينزل من قدر الديوان وإن كان يستحب أن يخلو منه ، لأن المرآة النقية لا تستر أدنى غبار ، ومن كملت محاسنه ظهر فى جنبها أقل العيوب ؛ وما انتقدنا هذه المواضع إلا ضناً بمثل هذا النظم أن تتعلق به هذه الشوائب ، ورجاء أن يتنبه إلى مثلها فى المنتظر ، فان الناظم كما بلغنا لم يتجاوز الثالثة والعشرين من سنيه ، ولا ريب أن من أدرك هذه المنزلة فى مثل هذه السن ، سيكون من الأفراد المجلين فى هذا العصر ، وممن سيحلون جيد البلاغة بقلائد النظم والنثر[1] » .

* * *

بلغ الرافعى بالجزء الأول من ديوانه مبلغه الذى أراد ، واستطاع بغير عناء كبير أن يلفت إليه أنظار أدباء عصره ؛ ثم استمر على دأبه ، فأصدر فى سنة ١٩٠٤ الجزء الثانى من الديوان ، وفى سنة ١٩٠٦ أخرج الجزء الثالث ، وفى سنة ١٩٠٨ الجزء الأول من ديوان النظرات ؛ ومضى على سنته ، معنيا بالشعر ، متصرفاً فى فنونه ، ذاهباً فيه مذاهبه ، لا يرى له هدفا إلا أن يبلغ منزلة من الشعر تخلد اسمه بين شعراء العربية .

وتألق نجم الرافعى الشاعر ، وبرز اسمه بين عشرات الأسماء من شعراء عصره براقاً تلتمع أضواؤه وترمى أشعتها إلى بعيد ؛ ولقى من حفاوة الأدباء مالم يلقه إلا الأقلون من أدباء هذه الأمة ، فكتب إليه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يقول :

---

(١) لا يعنينى أن أنقل هنا [redacted] كتب أهل الأدب فى الرافعى ، وإنما أثبت هذه القطعة بخصوصها لما كان لها فى نفسه من تأثير بليغ

« . . . أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يمحق به الباطل ، وأن يقيمك فى الأواخر مقام حسان فى الأوائل »

وكتب المرحوم الزعيم مصطفى كامل باشا يقول :

« . . . وسيأتى يوم إذا ذكر فيه الرافعى قال الناس : هو الحكمة العالية مصوغة فى أجمل قالب من البيان »

وكتب حافظ ، وقال البارودى ، ونظم الكاظمى ، وتحدث الأدباء والشعراء ما تحدثوا عن الرافعى الشاعر . وظل هو على مذهبه ذاك حتى سنة ١٩١١ ، ثم تطورت به الحياة ، وانفعلت أعصابه بأحداث الأيام ، فانحرف عن الهدف الذى كان يرمى إليه من الشعر ، وتوجه وجهة جديدة فى الأدب سنتحدث عنها بعد

ليس كل شعر الرافعى فى دواوينه ، وليس كل ما فى دواوينه يدل على فنه وشاعريته ؛ فالجيد الذى لم ينشر من شعر الرافعى أكثر مما نشر ؛ وقد كان فى نية الرافعى لو أمهلته المنية أن يتبرع لشعراء اليوم بأكثر ما فى دواوينه ، ثم يخرج منها ومما لم ينشر ديواناً واحداً مهذباً مصقولاً ، ليقدمه هدية منتقاة إلى الأدباء والمتأدبين ، ولكن الموت غاله فبطل أمله وبقى عمله تراثاً باقياً لمن يشاء أن يسدى يداً إلى العربية يتم بها صنيع الرافعى .

لم ينقطع الرافعى عن الشعر بعد تلك الفترة ولكنه لم يقتصر عليه ، وسنتحدث عن ديوان الرافعى الذى لم ينشر حين تحين الفرصة للحديث عن أعماله الناقصة .

شـــعراء عصره

قدمت الحديث عن شيوخ الرافعى فى الشعر الذين أخذ عنهم أو اقتفى آثارهم أو جرى معهم على سنن . وأثبت ما كان بينه وبين حافظ من المنافسة ، وما كان يتمتع به حافظ يومئذ من الشهرة والجاه والحظوة عند الشعب ، تلك الشهرة التى ألهبت غيرة الرافعى وحفزته إلى الكفاح وحمسته إلى استكمال أسباب الغلبة بعقد الأواصر وإنشاء المودات والدعاية لنفسه . ثم بينت ما كان بين الرافعى والكاظمى من صلة الحب والتقدير ؛ وتساءلت فى آخرة القول : هل من صلة بين الرافعى وبين غير هؤلاء الثلاثة من شعراء الجيل ؟ هل كان لغير البارودى وحافظ والكاظمى من شعراء العصر أثر فى شعر الرافعى ؟ وما مبلغ هذا الأثر ؟ وما نتيجته ؟

على أن الباحث لا يقنعه هذا التساؤل ، وليس يكفيه من وسائل البحث أن يعلم من شعراء العصر هؤلاء الثلاثة فحسب ؛ ولقد نشأ الرافعى الشاعر فى أول هذا القرن ، وأوله حافل بثلة من الشعراء لم يجتمع مثلهم فى زمان فى بلد ؛ فما مبلغ تأثر الرافعى بكل أولئك الشعراء المعاصرين ؟

هنا أدع للرافعى نفسه أن يتحدث ، وما حديثه هذا إلا طرف من الدعاية التى كان يقوم بها لنفسه فى أول عهده بالشعر ليبلغ المنزل الذى يطمح إليه . وإنه ليكشف عن شئ من خلق الرافعى وكبريائه واعتداده بنفسه ، ويدل على قوة الرافعى وعنفوانه وشدته فى النقد ، إذ كان هذا الحديث أول ما كتب الرافعى فى النقد .

إن أدباء العربية عامة لا يعرفون من الخصومات الأدبية أشهر شهرة

من الخصومة بين الرافعي وأدباء عصره ؛ فالخصومة بين الرافعي وطه ، وبين الرافعي والعقاد ، وبين الرافعي وعبد الله عفيفي ، وبينه وبين غير هؤلاء — هي خصومة مشهورة مذكورة في موضعها من تاريخ الأدب العربي في هذا الجيل ، مشهورة مذكورة في موضعها من تاريخ النقد في العربية .

وإن قراء العربية عامة ليعرفون الرافعي الناقد معرفة بصيرة ، ويعرفون شدته وعنفوانه في النقد ، شدة حببته إلى الكثير ، وألبت عليه الكثير . على أن من يريد أن يعرف أول شأن الرافعي في النقد فليقرأ مقال الرافعي « شعراء العصر في سنة ١٩٠٥ »

* * *

نشر الرافعي مقاله ذاك في عدد يناير سنة ١٩٠٥ من مجلة الثريا بتوقيع (*) وأحسبه أخفى اسمه وراء هذا الرمز حذر التهمة ، وليبلغ به مبلغه في الدعاية لنفسه ، فقد جعل نفسه في الشعراء رابع الطبقة الأولى من طبقات ثلاث تنتظم كل من يعرف الرافعي من شعراء عصره . جعل الطبقة الأولى منهم على الترتيب :

الكاظمي ، والبارودي ، وحافظ ، والرافعي ...

والطبقة الثانية على الترتيب :

صبري ، وشوقي[1] ، ومطران ، وداود عمون ، والبكري ، ونقولا رزق الله ، وأمين الحداد ، ومحمود واصف ، وشكيب أرسلان ، ومحمد هلال إبراهيم ، ثم ... حفني ناصف !

وفي الطبقة الثالثة :

الكاشف ، والمنفلوطي ، ومحرم ، وإمام العبد ، والعزبي ، ونسيم .

---

(١) لم يثبت الرافعي طويلا على هذا الرأي في ترتيب شعراء عصره ، وفيما كتب بعد ذلك من المقالات بتوقيعه الصريح ، بيان رأيه في آخرته .

ثم ألحق بهؤلاء اثنين يعرفهما من شعراء العراق ، هما : السيد إبراهيم ، ومحمد النجفى

وقد افتتح الرافعى مقاله بما يأتى :

« قرأت فى بعض أعداد (الثريا) كلمة عن (الأدب قديماً وحديثاً) فقلت : كلمة مألوفة . ولم ألبث أن رأيت جملة أخرى لأديب غيور على الشعراء ، كان رأس الشعر بين أولها وآخرها كأنما خدش بين حجرين ؛ فقلت : إنى أنظم الشعر فأسر ، وأقرأ عنه فأسر ، فمالى لا أنفثها والقوم قد أصبحوا يتنافسون فى أسماء الشعراء ، كما يتنافسون فى ألقاب الأمراء ؛ وقد استويا فى الزور ، فلا أكثر أولئك شاعر ولا أكثر هؤلاء أمير

« ثم رأيت بعد أن عزم الله لى كتابة هذا المقال أن أتركه بغير توقيع ، وإن كنت أعلم أن أكثر من يقرءونه كذلك سيخرجون من خاتمته كما لو كانوا أميين لم يقرءوا فاتحته ، فان الحكمة كلها والمعرفة بجميع طبقاتها أصبحت فى أحرف الأسماء .. فان قيل : كتاب لفلان ... قلنا : أين يباع ، وإن كان من سقط المتاع . على أن اسمى قد لا يكون فى غير بطاقتى وكتبى إلى أصحابى القليلين ، وفى سجل بعض الجرائد والمجلات ، فليظنني القارى ما ضرب على رأسه الظن ... ...

« وسأذكر فى هذه الأسطر كل من عرفته أو اتصل بى اسمه من الشعراء ، وأقطع عليه رأيى ، فإما وسعه فكمل به ، وإما أظهره كما هو فى نفسه ، لا كما هو عند نفسه ؛ ولذلك فقد ضممتهم إلى ثلاث طبقات ، وجاريت فى تسمية بعضهم بالشعراء عادتنا المألوفة »

ثم كتب رأيه بعد ذلك فى كل شاعر ممن ذكرت مقتبساً من شعره مستشهداً به على ترتيبه فى موضعه من طبقته

وكان مما قاله عن صديقه ومزاحمه حافظ :

« . . . وأكثر شعره فى هذه الأيام (سنة ١٩٠٥) أضعف من قبل . . .

والذين لم تستقم ألسنتهم ولم تزل أفكارهم على سقم يقولون : إن شعر حافظ اليوم خير منه فى ديوانه الأول ؛ وذلك لأنهم لا يدركون موقع الخيال الشريف ، ولا يهتزون للمعنى البكر إلا فى اللفظ الثيب ، وهؤلاء يفضلون (شوقى) عليه ، وهيهات بعد أن استنوق الجمل ... ! »

وكتب عن نفسه :

« لو كان هذا الشاعر (يعنى نفسه) كما أسمع عنه ، فانى أكون قد ظلمته إذا لم أقدمه عن هذا الموضع (الرابع من الطبقة الأولى) ؛ فقد أخبرت أنه لم يتم الرابعة والعشرين من عمره ، ولذلك فانى لا أكتب عنه إلا ما أعرف من شعره ، سواء كان فتى أو كهلاً ؛ وهو قد طبع من ديوانه الجزء الأول من سنة مضت ، وذكر فى مقدمة شرحه أنه نظمه فى عامين ، وأنه لم يقل الشعر إلا منذ ثلاث سنوات من طبع ذلك الجزء ؛ ولم ألبث أن رأيت منذ أشهر فى بعض أعداد مجلة (الجامعة) تقريظاً مسهباً جداً للجزء الثانى من ديوان هذا الشاعر ؛ فأكبرت ذلك ، ولا شك أنه ينظم اليوم فى الجزء الثالث قياساً على ما تقدم ...

« ومما امتاز به هذا الشاعر ولعه الشديد بالغزل ، وبلوغه فيه أسمى ما يبلغه النظم ؛ وله مزية أخرى ، وهى غوصه على المعانى فى الأغراض التى لم تطرق ، وكثيرون يعدونه بذلك شاعر مصر ، وديوانه معروف ، وشعره مشهور ... الخ »

وقال عن شوقى :

« سيأخذ بعض القراء العجب إذا رأى شوقى بك ثانى الطبقة الثانية وهو هو (شوقى بك شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية) ، ولكنا نعجب أكثر منه إذا رأينا الشوقيات قد انقلبت إلى شوكيات ؛ فأى ذوق سليم يطمئن لهذه المعانى المكررة وتلك الألفاظ النافرة من مثل : « قضى أريحى القوم » وغيرها . ولا أدرى لهذا الانقلاب سبباً إلا إذا صح ما يقال من أن (صبرى وسلمان) كانا يهذبان شعر الرجل من قبل ، وهو قول لا أجزم به ولا أرفضه ...

« ... وإنما اشتهر قديماً يوم كان الكاظمى فى العراق، والبارودى فى سيلان،

وصبرى من مهذبى شعره على ما يقال ، وحافظ فى السودان ، والرافعى لم يقل الشعر بعد — على ما قيل لى ! — وأثبت له الشهرة إضافته إلى الحضرة الخديوية ، على نحو ما يذكر النحاة فى باب (الجر) بالمجاورة ... »

وختم المقال بقوله :

« ... وسنرى ما يكون من امتعاض الشعراء بعد هذا المقال ، ولكنى أطلب إليهم أن يخفضوا عن أنفسهم ؛ فلا أنا من معية الأمير ، ولا من حاشية السفير ، وليس ما كتبت إلا رأيى ، فليبق كل فى رأيه وعند نفسه أشعر الشعراء »

وذيلته مجلة (الثريا) بما يأتى :

« ألقى إلينا مكتب بريد الزيتون يوماً ملفاً ضخما وارداً من مصر ، وداخله كتاب موجز ومعه المقالة المتقدمة للنشر . أما الكتاب فهذه صورته بعد الديباجة :

« . . . دونك مقالة بكرا لم ينسج على منوالها بعد فى العربية ، حرية بأن تصدر بها مجلتك الغراء ؛ ولا يروعنك شدة لهجتها فكلها حقائق ثابتة . وإن آلمتْ البعض فان الحق أكبر من الجميع ؛ وإنى لبالمرصاد لكل من ينبرى للرد عليها ، وأنا كفء للجميع ؛ وما إخال أحداً يستطيع أن ينقض حرفاً مما كتبته ، وإن هم لزموا الصمت فحسبك من سكوتهم إذ ذاك إقراراً بأنى أنزلت كل شاعر فى المنزلة التى يستحقها .

« ولا يعنيك معرفة اسمى ، فأنا ان جلا وطلاع الثنايا ؛ فانظر إلى ما قيل وليس لمن قال ، وبعد هذا فان أعجبتك مقالتى فانشرها وإلا فاضرب بها عرض الحائط .

« وإنى أقترح عليك أن تنشر جميع ما يردك من الردود فى المعنى ، سواء جاهر أصحابها بأسمائهم أو تستروا ، فان الموضوع طلى شهى ، وفى إطلاقك الحرية للكتاب ما ينشط بهم لحرية الجولان فى هذا المضمار »

قالت الثريا : وقد تصفحنا المقالة فراعنا شدة لهجة الكاتب وبتنا نقدم رجلاً ونؤخر أخرى فى نشرها ، إلى أن تغلب علينا الميل لنشرها ، إن لم يكن لشىء

فلكثرة ما حوته من رائق الأشعار لفحول الشعراء ، وهم نخبة شعراء مصر فى هذا العصر ؛ فأقدمنا على نشرها كما وردتنا بالحرف الواحد ، غير متحملين تبعتها ؛ وللكتاب الأدباء الحرية فى الرد عليها ، وأبواب الثريا ترحب بكل ما يردها من هذا القبيل ، سواء من المشتركين أو غيرهم .

« ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم[1] »

* * *

أحسب أن لهذا المقال أهمية كبيرة لمن يريد أن يدرس الرافعى دراسة أوسع قائمة على قواعد من العلم والتحليل النفسى ؛ وإنما يستأهل هذا الاهتمام من ثلاث نواح :

أولاً : إنه أول ما أنشأ الرافعى فى النقد ؛ فهو كالمقدمة لهذه المعارك الطاحنة التى قامت بين الرافعى ولفيف من أدباء عصره بعد ذلك بعشرين سنة ؛ فلا بد لمن يريد أن يتحدث عن الرافعى فى النقد أن يبدأ من هنا .

ثانياً : إنه ثبت جامع لأسماء الشعراء الذين نشأوا مع الرافعى فى جيل واحد ، وقرأ لهم ونظر فى شعرهم نظر الناقد أو نظر المعجب المحتذى ؛ فلا بد لمن يريد أن يتحدث عن الرافعى فى الشعر ، وعن الشعراء الذين تأثر بهم أو تأثروا به ، أن يعرف هؤلاء الشعراء .

---

(١) كان لهذا المقال رنة وصدى بين جماعة الشعراء فى ذلك العصر : وقد تحدث عنه المرحوم الرافعى مرة فى بعض مقالاته إلى قراء الرسالة بعنوان (كلمات عن حافظ) وصف فيها أثره وما أحدثه من ضجة بين الشعراء ؛ فليرجع إليه من شاء .

على أن الرافعى لم يصرح فى ذلك العدد أنه كاتب المقال ، ولكنه لم يستطع كذلك أن ينفيه عن نفسه ، وإن كان معروفاً لدى خاصته وأصدقائه أنه كاتبه ؛ وأسلوب الرافعى لا يخفى على أحد من قرائه .

وقد كتب الرافعى أن هذا المقال نشرته الثريا فى سنة ١٩٠٣ وهو سهو حقيقته ما ذكرت .

ثالثاً : إن فى هذا المقال لوناً من ألوان الدعاية التى كان يقوم بها الرافعى لنفسه ليبلغ الهدف الذى كان يرمى إليه بين أدباء العصر ، فلا بد لمن يريد أن يدرس وسائل الرافعى إلى الشهرة وذيوع الصيت أن يقرأ هذا المقال .

وبعد فان فيه شيئاً من أخلاق الرافعى المزهو بنفسه ، المعتد بعلمه ، القوى بإيمانه ، المتقحم على مواطن المهالك ؛ الرافعى القزم الضعيف الذى وقف على السفح تمتد خاصرته على راحته وهو ينظر إلى فوق ليقول للشعراء العالقة على القمة : انزلوا إلى أو أصعد إليكم فأرميكم إلى بطن الوادى أشلاء ممزقة ليس فيها عضو إلى عضو ولا يسمع لكم صريخ ... !

لقد كان الرافعى طويل اللسان من أول يوم ... ! ؟